ثم هي تسألني: أين كنت …؟ ومن أين أقبلت …؟ وماذا صنعت في هذا الوقت الطويل …؟ وأنا لا أجيب. وأنَّى لي أن أجيب بغير هذه الدموع التي تنهمر، وهذه الزفرات التي تنفجر، وهذا الشهيق الذي يتردد في حلقي متصلًا بعضه ببعض يزداد شدة وعنفًا حتى يكاد ينتهي بي إلى أزمة من هذه الأزمات التي تفسد أعصاب النساء حين يلح عليهن البكاء …!

وسيدتي وصديقتي قد أقبلت عليَّ فتتلطف لي وترفق بي وتهوِّن عليَّ بعض ما أجد، وإن كانت لا تعرف شيئًا مما أجد، ثم يسمع الشهيق وإذا سيدة البيت قد أقبلت، وإذا هي ليست أقل دهشًا ولا وجومًا من ابنتها، ولكنها تصرف الفتاة عني صرفًا شفقة عليها من هذا المشهد الذي قد يؤذي نفسها الشابة الناشئة، ثم تدعوني إلى أن أتبعها، ثم تهدئ روعى وتتلطف لي في الحديث وتسألني عن أمري فلا أجيبها بشيء، أو لا أكاد أجيبها بشيء، إنما هي جمل متقطعة غارقة في الدموع فيها ذكر للرحيل على غير موعد، وفيها ذكر للقرية ورؤية أهلنا فيها، وفيها ذكر لمصاب عظيم قد ألمَّ بنا هنا لم نكن ننتظره ولا نقدره ففقدنا أختي، وفيها ضيق بحياة القرية في ذلك الحزن المتصل، وحنين إلى السادة الذين لم ألقَ في خدمتهم إلا خيرًا وبرًّا، ثم فيها ذكر العودة المنفردة في الطريق الطويلة الملتوية المخوفة، ثم انهمار للدموع وانكباب على سيدتي أقبل يديها وقدميها كأني أشفق أن تردني ردًّا أو تدفعني عن الدار دفعًا؛ ولكنها حدبة عليَّ، رفيقة بي، تقيمني وتنهضني وتأمرني أن أذهب إلى حيث أصلح من أمري وأستأنف عملي في الدار، كأني لم أفارقها أشهرًا، وكأني لم أفارقها فجأة في غير استئذان، وكأني لم أزد على أن غبت يومًا أو أيامًا ثم عدت إلى مثل ما كنت فيه …! وأنا أذهب إلى حجرتي فأراها كما تركتها لم يشغلها أحد، ولم تسكنها خادم بعدي، ثيابي فيها كما تركتها وأدواتي فيها كما غادرتها لم ينقل شيء منها ولم يحول عن مكانه، ثم ما هي إلا أن ألقى الخدم ويلقوني بشيء من الدهش والوجوم، وآخذ في بعض الحديث، ثم أنظر فإذا كل شيء قد استقر وإذا أنا واحدة في الدار من أهل الدار كأن لم يكن بيني وبين الدار فراق.

ثم أعلم ما أعلم من حزن خديجة عليَّ ووجدها بي، وإبائها على أهلها أن يتخذوا لها خادمًا غيري ونزول أهلها عند ما كانت تريد.

ثم أستأنف الحياة مع السادة والخدم كما كنت أحياها من قبل، ومع ذلك فما أكثر ما لقيت من الخطوب، وما أشد ما احتملت من الآلام، وما أطول ما أنفقت بعيدة عن الدار من الشهور! وكيف لا تطول هذه الأشهر القصار وقد كان فيها من الأحداث ما